٢ ـ الشيخ علي يوسف

للأستاذ عبد العزيز البشري

تتمـــــة

ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردّد ، على أنه كان الى الطول . يظهر في مرأى العين نحيلا هزيلا ، ولكنه كان مكتنز اللحم . مستطيل الوجه ، واسع مساحة الجبهة ، أزرق العينين ، طويل الهُدبين كثيراً ما ترى له في إطراقه ، نظرة غربية ساجية . ضيق الفم ، على أنّ في شفتيه الحراوين شيئاً من الغِلَظ . تعلوه صفرة ما أحسبها من أثر مرض . وشعر لحيته الدقيقة المتّسقة يميل الى الشقرة . رفيق الصوت لينه إذا تحدث ، فاذا رفع صوته ضمر بعض الضمور ، وتسلخ بعض التسلخ ، فلم يكن من تلك الأصوات التي تصلح للخطابة

* * *

قال الراوي : وشجّ الناس لحمامة صغيرة قد جَنحتْ من الهواء فوقعت في حجر الشيخ لائذةً به من مَخافة ، وجعلتْ تَدِفّ بجناحيها وتضطرب من الفزع ، ومرّ الصقر على أثرها وقد أهوى لها ، غير أنه تَمطّر ومَرَق في الهواء إذ رأى الناس

وتناولها الامام في يده وهي في رَجفتها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعروس مُسرْوَلةً قد غاب ساقاها في الريش ، وعلى جسمها من الألوان نَمنمةٌ وتحبير ، ولها روح العروس الشابة يَهدُونها الى مَن تكره ، ويزفّونها على قاتلها الذي يسمى زوجها

وأدناها الشيخ من قلبه ، ومسح عليها بيده ، ونظر في الهواء نظرة . . . . وهو يقول : نَجوْتِ نَجوْتِ يامسكينة !

لفظا مصطفى صادق الرافعي

وكان بعدُ رجلاً شديد العقل ، قوي النفس ، حديد العزم ، وافر الشجاعة . لا تتعاظمه قوةُ خصم بالغةً ما بلغت قوةُ ذلك الخصم وبأسه . وإذا تحداه متحدٍّ ركب رأسه في نضاله لا يبالي أين يقع المصير ، وصحّ فيه قول الشاعر :

إذا همّ ألقى بين عينيه عَزْمَه
ونكّبَ عن ذِكر العواقب جانبا

وأذكر أنني مضيتُ إليه مرّة في صَحب لي من خُلصائه ، وسألناه أن يترفّق بالمؤيد ، فلقد تظاهر عليه خصومه ، وألّبوا الجمهرةَ عليه ، وأذكوا عليه حماسة الشباب في رأي له قد لا يحسن فهمَه العامةُ ، ولا يستريح اليه طموح الشباب . فأصغى الينا وأحسن الإصغاء ، وترك كل واحد منا يقول ما عنده ، حتى إذا انتهينا ونحن على الظن بأنه نازل عند رأينا ، عادل إلى ما سألنا ، فاذا هو يرتجّ في مجلسه ارتجاجة عنيفة ، ويقول في قوة وفي عزم حديد : « والله لا يعنيني أن يكون الناسُ جميعاً في صفّ واحد ، وأنا والحق الذي أعتقده بإزائهم في صف واحد » ! . وتركناه ونحن نرى منحدر المؤيد بطغيان الخصومة يوماً بعد يوم !

ولقد كان الشيخ علي ، رحمة الله عليه ، رجلاً متمكناً من نفسه حقاً ، ولقد كان مما يُشاع عنه ، ولعل خصومه هم مبعث هذه الاشاعة ، أنه كان يقول : أنا لا أبالي أن أخسر هذا البلد ، ففي إمكاني أن أعود فأكتبه بثلاث مقالات . . !

ولقد عاشرتُ الرجل ما عاشرتُه ، واستمكن ما بيننا من الودّ والإلف إلى الحدّ الذي يبعثني على الاعتقاد بأنه ما كان يخفي عني شيئاً حتى من نجوى نفسه في الأسباب العامة . وشهد اللهُ ما سمعت منه قط هذا الكلام ، ولا أية عبارة أخرى يمكن أن تؤدي معناه

ولكن مع هذا لقد كان هذا هو الواقع ، أعني الواقع من حاله لا من مقاله : فانني لا أعرف رجلا سياسياً عظيما كان أقل الناس أنصاراً وأكثرهم خصوماً كما كان الشيخ علي يوسف . وخصومه ، على كثرتهم ، لقد كانوا من جميع الطبقات ، وكانوا من جميع الهيئات ، وانهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب ، وكلهم عاملٌ على إسقاطه ، جاهدٌ ما امتدّ به الجهد في هدم المؤيد ، مذْكٍ عليه الأقلام والألسن من كل ناحية ، تدمغه بتهمة الخيانة

الوطنية فما دونها فى غير هوادة ولا إشفاق ، والمؤيد يتقلص بين أيدى القارئين ويتقلص حتى يُظن أنه قد تشرّف على العفاء . ثم إذا الشيخ يتجمع ، وإذا هو يشرع القلمَ شرعَ الرمح الرُّدَيْني ، وإذا هو يطعن الطعنةَ البكرَ ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فلا يُصيب إلاّ الكُلَى والمفاصل . وإذا هؤلاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعْراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، وإذا المؤيد يرنّ فى البلد رنينه ، بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه !

وقد عرفتَ أن الشيخ على يوسف كان مبغَّضاً إلى الكثرة فى البلاد . وإن هذا البغض ليرجع ، فى الأكثر ، إلى أسباب صناعية : منها المنافسات الصحفية ، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولىّ الأمر ، ومنها أنه كان هنالك رجال أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى ، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيت وذكر ، كان هؤلاء لا يستريحون إلى سياسة القصر ، ولربما ظاهروا المعتمد البريطانى أحيـــاناً فى عدائه للقصر . فهم ، بالضرورة ، ينقمون من كل رجل توافيه للقصر ، وخاصة إذا كان رجلاً كالشيخ على يوسف جبار العقل جبار القلم

أرأيت كيف كان هذا الرجل محاطاً من جميع أقطاره بنطاق من العداوات المختلفة ، بل التى يصطرع التناقض أحياناً بين أسباب بعضها وبين أسباب بعض ؟ . على أن إذكاء بغض الشباب والعامة للرجل من جهة ، وبغض بعض الخاصة له من جهة أخرى ، إنما كان يسلكه له خصومه من أحد طريق الضعف فيه ، إن صحّ هذا التعبير . أولها أنه كان معتدلاً لا يرى العنف سبيلاً إلى استرداد حقوق البلاد ؛ بل إن هذا العنف لقد يُرديها فى أخطار لم تكن لها فى الحساب ، وكان طوعاً لهذا يرى ألاّ يتحدث على الشئون العامة إلاّ الشيوخ الناضجون المجربون ، وهذا وهذا ، ولا شك ، مما لا يُرضى الشباب المشتعل حماساً لحق الوطن . ولا تنسى أن العامة من وراء هؤلاء

أما السبب الثانى فلصوقه بالقصر ، وشـدة توافيه له ، ومظاهرته له على الدوام ، وأظن أن هذا مقام لا تُحمد فيه إطالة الكلام

مع هذا كله فنى يوم الجُلَّى ، يوم تحدث الأحداث القومية ، ينفض الناسُ قلوبَهم حتى يتساقط عنها كل ما علق بها من الحقد على الشيخ على يوسف ، ويُتْلِعون أعناقهم نحو المؤيد ، شاخصةً أبصـارهم ، مرهفةً آذانهم ، معلقة فى انتظار ما يقول الشيخ أنفاسُهم . فإذا النمر الجبار يثب على فريسته من عدوان العادين وثبته ، فلا يزال يوسعها تمزيقاً بمخلبه ، وضغماً بأنيابه ، حتى ما يدعها إلاّ (أعظماً وجلوداً)

نعم ، لقد كان يقول الشيخ على فيروى كل غلة ، ويشفى كل علة ، ويعلو ببسطة قلمه حتى ما ينتهى منتهاه فى ذاك أحد . والناس طراً لهذه النصرة بين مهلل وبين مكبّر ! . هذه كانت قدرة الشيخ القادرة ، وهذه كانت قوته العبقرية النادرة . وهذه مقالاته فى أعقاب حادثة دنشواى ما برحت ترن فى آذان من قرأوها الى الآن

وإنى لأذكر له حادثاً طريفاً فى هذا الباب :

فشت الفاشـية ، لا أعادها الله ، بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عقب مصرع المرحوم بطرس باشا غالى ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ ، على ما أذكر ، وعقد الأقباط مؤتمراً مِلِّياً لهم فى أسيوط ، وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله فى القاهرة ، وأفضوا برياسته إلى أكبر رجل فى البلاد يومئذ ، وهو المرحوم مصطفى رياض باشا ، واختار القائمون على هذا المؤتمر مثوىً لاجتماعه ملعب مصر الجديدة ، ومضى الناس أفواجاً فى اليوم المشهود ، واجتمع رجالات البلد لم يتخلف منهم إلا من انقطع به العذر . وتصدر الحفل رياض باشا . وتعاقب الخطباء كابراً بعد كابر . فأبلوا فى المقال أيما بلاء ، وأبدعوا فى الخطاب أيما إبداع

حتى إذا كانت النوبة على الشيخ على أذكى بعضُ شبان الحزب الوطنى فى المحتشدين فى بهو الملعب طائفةً من الفتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس ، يسألون القوم ألاّ يصفقوا إذا خطب الشيخ ، ولا يظهروا أية إشارة تدل على الاستحسان . فوعـدهم أكثرُ الناس بهذا ، وأصروا عليه مخلصين لما تنطوى صدورهم من حقد عليه ومن بغضاء

وينبعث الشيخ يخطب ، وهو كما قدمت لك غير خطيب . استغفر الله ، بل لقـد انبعث يتلو مقالته فى أوراق بين يديه ، وأنت حق خبير بالفرق الهائل بين أثر التالى وأثر الخطيب . وما إن مضى فى تلاوته بضع دقائق حتى أخذ الناسُ عن نفوسهم ،

ونسوا ما عاهدوا أولئك الفتيانَ وعاهدوا أنفسهم عليه . فبروا من التصفيق أكفَّهم ، وشققوا بالصياح حناجرهم تشقيقاً ، فكنت تسمع من هتافهم مثل الرعد القاصف ، وترى من اضطرابهم وتموجهم فعل الريح بالأغصان فى اليوم العاصف ! وكان من أشدهم سعراً من كلام الرجل هم أولئك الفتية الذين كانوا يروضون الناس على ألاّ يلقَوا خطابه إلاّ بالجمود والأعراض

وُجهد بالرجل ، فتعاور التلاوة عنه كل من أستاذنا ابراهيم بك الهلباوى ، والمرحوم أحمد بك عبد اللطيف المحامى الأشهر ، وأنت كذلك خبير بأثر خطبة يتلوها فى الساعة غير منشئها ، ما أرخى الها من قبل نظراً . ومع هذا فما برحت تزداد الفورة ويشتد بالقوم الفتون !

ولقد أذكر أنه بعد إذ فُرغ من خطاب الشيخ وافقت فى طريق صديقاً لى من شبان الحزب الوطنى ، وهو الآن من أعلام أهل الفضل الذين يتولون منصباً جليلاً فى السلك القضائى . وكان يومئذ مسرفاً غالياً فى التشيع لمبادىء حزبه ، مفرطاً فى بغض الشيخ ، شديد الحمل عليه . ورأيته يضرب كفاً بكف ، فسألته ما به ؟ فأومأ الى مكان الشيخ من منصة الخطابة وقال : (على رِحس الخطبة دى ، يقعد ابن الـ ... يخون فى البلد ثلاث سنين) !

ولا زلت كلما لقيت صاحبى أذكره هذه الحكاية ، فيضحك فى غيظ لا أدرى إن كان من تذكيرى له بهذه القصة ، أم أنه ما تزال فى صدره بقية من هذا الضغن القديم ؟ ! الله أعلم !

***

ولقد عرفت أن الشيخ على يوسف كان رجلاً مكافحاً ، بل إن قلمه لم يكن يجود فى شىء مثلما كان يجود فى الكفاح . ولم تكن سياسة الاحتلال فى مصر تخشى سطوة قلم قدر ما تخشى قلم هذا الرجل ، فانه كان فوق كفايته البيانية ، وما آتاه الله من شدة العارضة ، والتمكن من نواصى جلائل المعانى ، لا يهرول إذا هرول فى الصغائر ، ولا يطعن إذا طعن إلا فى الصميم

ولا أحب أن أتجاوز هذا المعنى فى الرجل قبل أن أدل على خلة من خلاله فى كفاحه : ذلك بأنه كان يتعبد أضعف النقاط فى خصمه فيتجمع لها ، ثم يثب عليها بكل قوته ، ولا يبرح يطعنه منها دراكا ، حتى يدوخ رأسه ، ويذهله عن سائر أسلحته ، إذا كانت له أسلحة أخرى تجهز بها لذلك النضال

وكان فى كتابته مريعاً جداً ، حتى لتحسبنه ويده تجول فى القرطاس عازفاً على قانون لامسطراً بيراع ، وتراه كلما فرغ من وجه الرقعة من الأضامة دفع بها الى من يفضى بها الى المطبعة . وهكذا حتى يأتى على غاية المقال ، لا يتتعتع ، ولا يتحبس ، ولا يحتاج الى مراجعة شىء مما أسلف ، ومع هذا تجد المقال سويّا غاية فى الحبك وتناسق الأطراف !

ومن العجب العاجب فى أمره أنه كثيراً ما كان يكتب والغرفة محتفلة بالزوار وأصحاب الحاجات ، يرفعون أصواتهم بفنون الأحاديث والجدل ، بل لقد يأخذ معهم فى بعض ما هم فيه وهو ماض لشأنه لا يشغله هذا عنه كثيراً ولا قليلا !

الشيخ على الصحفى

ولقد كان رحمه الله ، صحفياً بأجمع معانى الكلمة ، يكتب المقال الرئيسى كل يوم بيده ، ويراجع كل ما يدلى به اليه الكتاب من المقالات ، ويفض البريد بنفسه ، فما رآه كفؤا للنشر أذن فى نشره ، وقد يحذف بعض المقال ويبقى على بعض ، فاذا تهيأت الجريدة للطبع وراجعها المصححون تناولها فقرأها من أولها الى آخرها يصحح ما عسى أن يكون قد فات القومَ تصحيحه ، ويتثبت من ألا يكون قد دُس على الجريدة شىء مما يكره ، أو يكون قد سقط اليها فى سر منه إعلان عن خمر أو غيره من المناكر

وكان على جلالة محله ، وكثرة المخبرين لديه ، يطوف بنفسه كل يوم بأكثر الدواوين فى تنسم الأخبار يستخرجها بلطف حيلته من النظار (الوزراء) أو من المستشارين الانجليز فمن دونهم من عيون الموظفين

وهكذا استطاع الشيخ على بكفايته وحدِّ عزمه ، أن يجعل من المؤيد أعظم جريدة فى مصر ، برغم كل ما كان يعترضها من الكيد ، بل أعظم جريدة فى العالم العربى كله

من أخلاق الشيخ على

وقبل أن أختم الحديث فى الشيخ على يوسف أرى لزاماً أن أشير الى فضيلتين من فضائله البارزة بروزاً عظيماً : أولاهما أنه كان خيِّراً مطبوعاً ، ما رأيته سُئل الخير قط يستطيعه إلا فعله